الدكتور عبد الكريم الأشتر
عضو شرف في مجمع اللغة العربية(*)

د. مازن المبارك(**)

الكلام على من أحب، والكلام على من أكره، موضوعان أفرّ من الحديث فيهما؛ لأني لا أطيق حمل ما يستوجبان. إن الحديث فيهما حديث ثقيل على النفس، يحاصرها بمشاعر الحب أو الكره من كل جانب.

وما استجبت إلى رغبة الكتابة في أحدهما طوال حياتي إلا مجبراً مضطراً؛ لأنني حين أتحدث فإنما أتحدث بلساني، وأما حديثي في الحب أو في الكره فليس للساني مكان فيه.. إن القلب هو لسان الحب وترجمان المشاعر وحبل المودّات. وإني لأخشى أنَ أتكلم وأتكلم فلا يكون كلامي إلا تعبيراً عن العجز عن الوفاء بحق من أتحدث عنه!

لقد عرفت الدكتور عبد الكريم الأشتر منذ نيّف وستين سنة، حين اجتمعنا أمام باب المعهد العالي للمعلمين في المبنى القديم لجامعة دمشق مع نفر من المتقدّمين إلى المعهد، وكان بينهم صديقنا الأستاذ عاصم البيطار رحمه الله، وارتبطت قلوبنا منذ تلك الساعة بعقد صداقة استمرّت استمرار حياتنا، وعرفَنا قسم اللغة العربية في تلك

(*) أُعدت هذه الكلمة للترحيب بالدكتور عبد الكريم الأشتر بعد انتخابه عضو شرف في المجمع، ولكن حالَ دون إلقائها انتقالُ الدكتور الأشتر إلى جوار ربه.

(**) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

الأيام بالفرسان الثلاثة. أربع سنوات كانت تجمعنا فيها قبل الظهر كلية الآداب، ويجمعنا بعد الظهر المعهد العالي للمعلمين، لم يغيّر واحد منا مقعده بجوار زميليه. وتجمعنا خارج الجامعة دار أحدنا لسمر أو طعام أو درس ومذاكرة أو لذلك كلّه، لا ينفرط عقدنا إلا إذا سافر أحدنا ولم نسافر معه، وما أكثر ما كانت سياحتنا مشتركة داخل القطر وخارجه.

ولو كانت أشجار غوطة دمشق أو بساتين الميدان القديمة تتحدث لتحدثت عن الثلاثة الشبان الذين كانوا يقضون الساعات الطويلة كل يوم دارسين قارئين ومتنزّهين، ولو تحدثت قرى ريف دمشق ومتنزَّهات مصايفها لتحدثت عن رحلات وأسفار وجلسات وأسمار، ولردّدت صدى أصوات أولئك الشبان الثلاثة يلقون الشعر أو ينشدونه، ويقرؤون النصوص أو يعربونها، أو يحلّلون ويعلّقون وكانت لكل منهم خصوصية لا يقتحمها عليه أحد منا ولا يمسّها، ويعرف جوّه فلا يعكّره عليه، وكانت تجمعنا رغبات كثيرة مشتركة، فلا يكون أحد أسعدَ منّا حين نغتنم من الوقت ما نقضيه معاً لتحقيق تلك الرغبات، سواء أكانت في سياحة داخل القطر أو خارجه، أو في قضاء يوم في الغوطة، أو جلسة ساعة على قراءة فصول من كتاب أو قصائد من ديوان أو كانت في جلسة على طعام. لقد جمعت بيننا أخوّة وصداقة ومحبّة، ووحدّتنا صلة حميمة وغيرة صادقة على اللغة العربية والثقافة والتراث.

ولولا أني أخشى أن يطغى القلم بطغيان الذكريات لتركت الحديث يجرّني إلى صور عجيبة حبيبة! ولكن مسؤولية الحديث الرسمي عن الزميل المجمعي تدفعني إلى تغيير مسار الحديث إلى اتجاه آخر.

يطيب لي قبل الحديث عن الأستاذ الأشتر وعلمه وثقافته وأدبه أن أتحدث عن الأستاذ الأشتر الإنسان؛ لقد جمعتْ بيني وبينه رحمُ مودّة خلصت من الكلفة والتكلّف، ومن الرياء والتزلّف، صفاء لا كدر فيه، وصداقة لا عتب فيها، نفترق سنة فإذا اجتمعنا فكأننا تفرّقنا بالأمس! وصدق من قال: (إذا صحّت لك مودّة أخيك فلا تبالِ متى يكون اللقاء.) ولطالما قصّرت في حقّه فإذا رأيته كانت نظرة عينه ولهفة(*) لقائه وحركة يده أسرع من اعتذاري، وكانت أقوى من أيّ اعتذار كنت سأقوله. إنه لم يكن يسمح لي أو يقبل مني أن أعتذر، إنه أسبق إليّ من اعتذاري إليه! فللّه ما أطيب نفسه وأصفاها، وأرقى أخلاقه وأرضاها، ولله ما أحلى الصداقة إذا تقاسم الصديقان الثقة وتنافسا في الزيادة منها. لقد رأيت أنها إذا صدقت المودّة ظهرت معها المسامحة، وزالت من طرقها المضايقة والمعاتبة، ووجدتْ في قلب الصديق مكاناً رحيباً تبقيه فيه أخاً وحبيباً، وتحفظه حاضراً ومغيَّباً.

جمعنا طلب العلم أيام الشبيبة والفتوّة، والنفوس خالية من الهموم، والأذهان نضرة متطلّعة، والأخلاق متّسعة رضيّة، لا همّ ولا غمّ، ثم فرقتنا الأيام وباعدت بيننا الليالي حتى صرنا ننتظر مواسم اللقاء ونختلس ساعات المناسبات ليكون اجتماعنا ربيع حياتنا وصدى ذكرياتنا.. فإذا ضاع أحدنا عن أخيه كان كمن ضاع عن نفسه وتاه عن إلفه، وشعر بالغربة ولو كان بين الناس!

حصل الدكتور الأشتر على الإجازة في الآداب من جامعة دمشق عام ١٩٥٢م وحصل على الماجستر من معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة وحاز درجة

(*) في المعجم: اللهفة: يقال في التحسر على فائت: يا لهفتاه...
الاقتراح: وتطلُّعُهُ لِلِّقاء..

الدكتوراه في الآداب من جامعة عين شمس عام ١٩٦٢م، واختاره المعهد من بين خرّيجيه ليكون مدرِّساً فيه فور تخرّجه منه.

درّس في جامعة دمشق ما بين سنتي ١٩٦٣و١٩٨٨م لم ينقطع إلاّ في سنواتٍ أُعير فيها إلى الجزائر وسنوات أُعير إلى الإمارات. واختاره مجمع اللغة العربية في دمشق عضواً مراسلاً عام ١٩٩٢م.

تخرَّجت به أجيال أحبت الأدب لحبّها أستاذ الأدب، كان طلابه يشعرون معه بالراحة والاطمئنان، فالأستاذ الأشتر أديب فطرة وطبع قبل أن يكون أديب تعلّم واكتساب، وصاحب شخصية متميّزة بطبعها وطبيعتها، فهو ذو لحن إنساني عاطفي، يظهر في صوته وفي أسلوبه وفي سلوكه، شديد الحساسية، ومرهف الشعور، أنيس لطيف، ولكنه إذا استُفزّ غضوب، وإذا غضب عنيف، يعبر عن غضبه بنظرات تتحدّى، وكلمات تنفذ سهاماً إلى الأعماق، وقد يخرج أشدّ الغضب وأعنفه في كلمات ساخرة تستلّ بحدّة وذكاء كلَّ ما تراكم في نفسه من ألم وثورة، وإذا كتب في ساعة الغضب فصرير قلمه أعلى من نبرات صوته. على أن عفوه أسرع من غضبه، ورضاه أقرب من عتبه.

والأستاذ الأشتر بستان تعدّدت فيه الثمار وتنوّعت فيه الأزهار أطياباً وألواناً؛ كتب الخاطرة والمقالة والسيرة، وسرد الذكريات ووضع المؤلّفات وحقق بعض كتب التراث.. وكتب في الأدب والنقد، وكانت كتاباته موزّعة بين أدب الدرس وأدب النفس، وكان قلمه ذا نكهة متميّزة برشاقة لا تخلو من نكتة تحمل من معاني الجدّ ما تحمل!

في كتبه من الأدب ما يضاهي ما في سلوكه من أدب، فقد جمّله الله بالأدبين. وأعود بين الحين والحين إلى ما أهدى إليّ من كتب، وأشهد ما تجولت عيني في

صفحات كتبه، إلاّ انتعشت نفسي بأزهار أدبه، وما استغرقت في قراءة صفحاته، إلا شُغلت عن قراءة غيره بحلاوة عباراته. ولشخصية الدكتور الأشتر أثر باق في نفوس طلابه الذين قرؤوا عليه، وزملائه الذين رافقوه، وأصدقائه الذين خالطوه، وآلاف الذين عرفوه في كتبه.

وإذا كانت الآثار تدلّ على شخصية صاحبها فإن كتابات الدكتور الأشتر تدلّ على أنه رجل إنسان، وإنسان أديب، وأديب مرهف، وأديب طبعٍ لا أديب صنعة، وعلى أنه ذو اطلاع واسع، وفكر يتّسع لما يضيق به غيره، يتّسع لليمين ولليسار، وللقديم والحديث، ولكل الاتجاهات والنزعات، ولكنه يقرأ كل ذلك بعين ناقدة نافذة. لقد عاش الرجل الحياة بحلوها ومرّها، ورضاها وسخطها، جرّب ومارس، ودرَس ودرّس، وأقام ورحل، وانتهى إلى أن المأوى إلى عزّ القناعة خيرٌ من اللجوء إلى ذلّ الضراعة، ولأَن تجمع مع الحرمان الرضى خيرٌ من أن تجمع معه السخط، وهو يرى في القناعة مالاً لا ينفد فيقول مع القائلين: كفى بالقناعة مُلْكاً، ويرى الصدق مع النفس ثم مع الناس من أرقى الفضائل الإنسانية. أذكر أنني يوم خرجت من بعض مقالاته بحرصه على هاتين الفضيلتين اللتين هما القناعة والصدق، كتبت على هامش مقالته: لقد حصَّنت المجتمع بهاتين الصفتين بسياج يحميه من كل رذيلة! كما أذكر أنني قرأت له شيئاً عن الأخلاق وهو يكتب في النقد الأدبي، ويصوّر ما تصل إليه علاقة الناقد بالمنقود من تردٍّ وسوءٍ وتفككٍ في الصلات الاجتماعية وبُعدٍ عن سلامة السلوك وجادّة الأدب!

وأما في اللغة فطالما دافع عن العربية، ودعا إلى التقارب بين لغة الكتاب ولغة الخطاب، وأن يوضع كلٌ في موضعه الصحيح في منهج تبقى للعربية الفصحى فيه منزلتها وكرامتها، وهو بذلك إنما يعبّر عن منهج مجمعيّ أصيل.

ولعلَّ من أهم ما يتصف به الدكتور الأشتر أنه يمثِّل جيلاً من الأدباء الذين جمعوا الأدب بمعنييه؛ الخلقي الإنساني، والفنّي الاصطلاحي الثقافي، ولم يتخلّ عن أدب المهنة ولم ينزع أخلاق العلماء في سبيل السبق إلى نشر كتاب أو إذاعة رأي أو بلوغ شهرة، أو غير ذلك من الأمراض التي حلّت بكثيرين من جيل هذا العصر. وامتاز عن أمثاله أيضاً بأنه وقف حارساً لتلك الأخلاق يتصدّى للمتجاوزين والمتطاولين ويفضح المدجلين والمدلّسين والسارقين، ولم يبق صامتاً مسالماً، لقد كان – أشهد– خيراً مني، فأنا أُسرق وأسكت، وأهاجم فأُعرض، وكان هو يُسرق فيصيح، ويُتعرَّض له فيتصدّى ويهاجم!

لقد خاض غير معركة من معارك الرأي والعلم، لا تعصباً لرأي أو على رأي؛ بل لخلق يقف إلى جانبه، ولصدق يعبر عنه، ولحقٍ يعلنه. إنه يرفض الكيد والاستهتار والتجنّي والادّعاء للفوز بالسبق، أو لإخفاء خبر علمي أو حقيقة عن نسخة خطيّة، أو تزوير في تحقيق نصّ عزيز.. فلطالما علا صوته وهو الخفيض عادة، وارتفعت نبرته وهي الهامسة، واحتدت كلمته وقست وهي الناعمة اللطيفة، وكانت له صيحات أَشْتَرِيَّة عرفتها بعض الصحف والمجلات في دمشق والإمارات. وهو يدعو إلى أن تسود في أعمال العلماء أخلاق العلماء وإلى أن يكون الإيثار إيثاراً للعلم في حقائقه لا تفضيلاً للعلماء في أسمائهم أو مناصبهم.. وأن يكون الحكم على الأدب في ذاته لا على منتجه في نزعته وصداقاته...

ويُفهم أكثر من هذا وأبعد من كتاباته الموزّعة والمنشورة التي تشهد له بالغيرة الصادقة على أخلاق الأمة ولغة الأمة وأدب الأمة.. ولم يكن اختصاصه في الأدب الحديث الذي استغرقه دراسة وتدريساً وإنتاجاً وتأليفاً لينسيه الحرص على أصالة اللغة وسلامتها ووجوب الدفاع عنها.. إن الجديد المعاصر الذي عاش فيه وخاض أمواجه وعُبابه لم ينسه الأعماق واللجج وما فيها من أصول وجذور ولآلئ. كما لم تنسه بهارج الحياة الحديثة وزخرفها، ولا أنوار الإعلام الحديث ومبالغاته، أن يرى الإحباط الذي يحيط ويشمل ساحات حياتنا العربية.. ومنها حياتنا اللغوية التي هي أخطر الساحات أثراً في حياتنا الثقافية المستقبلية.

ولست أكتم أيها السادة أنني إذا أعلنت قدر الدكتور الأشتر الثقافي فلأنني بعد طول المنافحة في حياتنا الفكرية والسياسية، وطول الممارسة لحياتنا الاجتماعية والثقافية وما ألقى في ساحاتها من رجال وأقلام ونزعات وأفكار، أصبحتُ أقيس وعي المثقف العربي بوعيه اللغوي قبل غيره، فإذا استقام وعيه وأدرك أثر اللغة في حياة الأمة فكراً وموقفاً، قولاً وسلوكاً فهو عندي المواطن المثقف الذي يرجى خيره، ولا خير في غيره أيّاً كانت عقيدته أو جنسيته أو مذهبه..

أخي عبد الكريم.

لقد عشنا كادحين، وعملنا فارسَين، وعملتْ فينا الأيام، فوهنت منا الأجسام، وخبت منا العيون، وركبتْ فوق أكتافنا من السنين ثمانون.. فوقفنا على شاطئ الحياة مودِّعَيْن نُصعِّد أنفاسًا معدودة، ونسير خُطاً محدودة، لا ندري الرحيل متى سيكون.

وقد قال ﷺ لأمثالنا أن يغرسوا الفسيلة.. فلنجعل رحاب المجمع موضع غراسنا لخدمة لغة قومنا ولغة قرآننا.. ونحن بحمد الله كهول بهمّة شباب، وإننا لنرمي بهمّتنا إلى أبعد مدى آمالنا.

وأسال الله أن يديم علينا الصحة ويتم لنا النعمة، ويسدّد لنا القول والعمل. ولك مني أصدق التهنئة بإضافة الشرف إلى رتبتك إذ يستقبلك مجمع اللغة العربية عضو شرف يعتّز المجمع بانضمامك إليه.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.